الحملات الجديدة وتصريحات البابا:
الجهات والأسباب والأغراض وطرق المعالجة

السفير د : عبد الله الأشعل

أصبح النيل من رسول الله محمد صلى الله علية وسلم ظاهرة تستفز المسلمين وتضيف جديدًا إلى عوامل الشقاق مع الغرب وتخلط الأوراق في باب الإرهاب وعلاقته بالأديان ، كما تلقى بظلال من الريبة حول فرص الحوار بين الغرب والمسلمين وسعى المصلحين إلى الاستفادة من القيم الدينية في محاربة صور الفساد والإرهاب وانحراف مسيرة البشرية في هذا العصر .

ولذلك تهدف هذه الورقة إلى تقديم تحليل شامل في الجزء الأول لظاهرة النيل من الإسلام عمومًا والنيل من الرسول الكريم بشكل خاص ، ثم تقدم تفسيرًا لهذه الحملة ودوافعها ووضعها في سياق سياسي أشمل ، وأخيرًا سبل مواجهة هذه الظاهرة نظرًا لخطورتها وآثارها ودلالاتها .

أولاً : ظاهرة النيل من الإسلام ورسوله :

ظاهرة استهداف الإسلام من الناحية الفكرية قديمة قدم الرسالة نفسها وطالت القرآن الكريم ورسول الله صلى الله عليه وسلم وساهمت المؤامرات اليهودية في ذلك ، خاصة بعد التحكيم في قضية وجود اليهود في المدينة المنورة بسبب تأمرهم على أمن البلاد وانتهاكهم لدستور المدينة الذي كان أول عقد اجتماعي لتأسيس فكرة المواطنة وأمن الوطن لكل أبناء المدينة من جميع الأديان والطوائف وهم أمام القانون سواء ويصح أن تكون وثيقة المدينة دستورًا وهو الأقرب إلى الواقع ، كما يصح أن تكون معاهدة بين المسلمين واليهود وهذا جائز من وجهة نظر القانون الدولي .

وقد ظل استهداف القرآن والرسول عليه الصلاة والسلام- وهما جناحا الشريعة الإسلامية - بشكل لم ينقطع عبر التاريخ ، ولكن الحملة كانت تشتد كلما ضعفت الأمة الإسلامية ، كما لعب بعض المستشرقين دورًا مشبوهًا في هذه الحملة وبثوا

السم في الكتابات الإسلامية عبر العصور مما لا يتسع المقال لتفصيله ، وإن أتيح للكثيرين أن يفصلوا في هذا الفصل في الموقف من الإسلام في دراسات ورسائل جامعية وندوات علمية كان للرابطة أيضًا دورها في تحليله والتعريف بجوانبه .

ويعنينا في هذه الورقة أن نعالج الحملة الجديدة ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم التي بدأت في الواقع منذ سبتمبر ٢٠٠٥ ، ولكن هذه الحملة الموجهة ضد الرسول الكريم والتي تتهمه بإذكاء الإرهاب أعقبت الحملة الشاملة على الإسلام والمسلمين التي أعقبت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة ، فالحملة على الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن فصلها عن الحملة على الإسلام وديار المسلمين، وإن كان استهداف النبي الكريم في إطار هذه الحملة يشير إلى أن هذه الحملة هي الأعنف ، وأنها مرتبطة باستهداف القرآن الكريم أيضًا وامتهانه ، كما أنها جزء من ظاهرة الاستهداف التاريخية لأسباب متفاوتة ، فالحملة ضد النبي جزء من حملة عامة ، وأنها ظاهرة متصلة وليست مستحدثة ، وأنها أظهر من حلقات الاستهداف السابقة بسبب ثورة الإعلام ووسائل الاتصال من ناحية ، وبسبب حساسية المسلمين تجاه الغرب وتهاوي فرص التعاون معه من ناحية أخرى ، ثم أخيرا بسبب ما يعانيه المسلمون من استهداف في كل مناحي حياتهم ، فالحملة ليست منقطعة عن الماضي ، كما أنها لا يمكن أن تتجزأ عن مجمل صورة الحملة الشاملة التي تستهدف الإسلام وكل المسلمين ، ورغم كل ذلك يتزايد عدد المعتنقين عن قناعة بهذا الدين الحنيف ، ويرتفع شأنه وتقوى شوكته في هذا الاختبار التاريخي .

يهمنا في هذا الجزء من الدراسة بيان جوانب الحملة الشاملة ، ثم بناء عناصر الظاهرة التاريخية باستهداف النبي الكريم في فصلها الجديد ، وذلك تمهيدًا للانتقال في الجزء الثاني إلى تفسير الظاهرة ثم اقتراح الإجراءات اللازمة لمواجهتها .

فالحملة الشاملة استهدفت البلاد الإسلامية بغزو أفغانستان والعراق ورفع لواء مكافحة الإرهاب ، ومادام الإرهاب قد ارتبط في مفهوم الحملة بكل ما هو إسلامي، فقد اقترنت كل مكافحة للإرهاب بمطاردة الإسلام والمسلمين ، رغم تزايد موجات الإرهاب الحقيقي الذي يفتك بالأخضر واليابس ويضرب حضارة

الإنسان ، صحيح أن معظم العمليات الإرهابية يقوم بها منظمات إسلامية تعلن عن نفسها في كل مكان فاختطفت الإسلام من أصحابه الحقيقيين ، وهي إرهابية أيضًا في نظر عموم الفقهاء في العالم الإسلامي ، إلا أن استهداف الإسلام والمسلمين بذريعة الإرهاب قد لعب دورًا أساسيًا في تقديم الذريعة لكل من يريد داخل العالم الإسلامي للقيام بأي عمل بدعوى الرد على ازدراء الإسلام أو الانتصار للقرآن وللرسول الكريم ، بل أصبحت إدانة هذه الأعمال من المفكرين والعلماء الجادين مدعاة من جانب الإرهابيين للهجوم على علماء الأمة وتسفيه آرائهم .

وهذه الظاهرة بدورها تلقى تشجيعًا من جانب الغرب حتى يجد هو الأخر الذريعة لوصم الإسلام والمسلمين كلهم بالإرهاب ، فتضيع الأصوات العاقلة الهادئة في هذا الطوفان من الأفعال الإرهابية الغربية ، والردود الإرهابية تحت شعار الإسلام فتشقى المجتمعات الإسلامية وتتقطع أواصر المودة بين أتباع الأديان وينسب إلى الإسلام ما هو بالقطع منه براء .

وقد بدأ الفصل الجديد من الظاهرة في الدانمارك حيث نشرت صحيفة يولاندز بوسطن في ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٥ رسومًا تصور الرسول الكريم على أنه إرهابي وطلبت الصحيفة من قرائها في مسابقة عامة اختيار أكثر الرسوم تعبيرًا عن إرهاب الرسول ، ولما لم يلتفت أحد إلى هذه الرسوم ، عادت الصحيفة نفسها إلى نشر الرسوم في أواخر يناير ٢٠٠٦ بعد أيام من فوز حماس في الانتخابات الفلسطينية ، فأحدثت هذه المرة ردود فعل عاصفة من بعض الحكومات وكل الشوارع العربية ضد الدانمارك وبضائعها بل وتجاوزت بعض الردود حدود الاعتدال ضد بعض البعثات الدانماركية ، ورغم كل ذلك تمسكت الحكومة الدانماركية بأن الرسوم نشرت في حدود حرية التعبير ، ورفض القضاء الدانماركي أن يدين هذه الرسوم رغم حماية القانون الدانماركي لقدسية الأديان ، بل إن أوروبا كلها هبت تدافع عن حرية التعبير ضد ما اعتبرته إرهابًا فكريًا إسلاميًا تمارسه مجتمعات لا تعرف أي نوع من الحرية ولم تالف حرية التعبير وهي أعز ما في التراث الديمقراطي الأوربي .

ولم يبرر دعاة الحرية ما تلحقه حرية البعض من إساءة لمعتقدات آخرين ، وانتشرت ظاهرة الرسوم المسيئة للرسول في عدد من الصحف والمجلات الفرنسية والألمانية والاسبانية والإيطالية وغيرها ، ولم يمنع غيرهم من النشر سوى تهديد الجاليات الإسلامية باستهداف من يتورط في هذه الجريمة . كذلك لم يعلق دعاة الحرية على النقد اللاذع من العالم الإسلامي على أساس أنهم يسترخصون مقدسات المسلمين ، بينما يخضعون في صغار ومهانة لقوانينهم التي تحظر عليهم مجرد مناقشة المحرقة اليهودية ، ناهيك عن مقدسات اليهود وأنبياء بني إسرائيل .

والغريب أن البابا بنديكت السادس عشر كان من أشد نقاد هذه الحملة ورفض أن تكون حرية التعبير مبررًا للإضرار بعقائد الآخرين ، ولكن البابا جدد الحملة ضد الرسول الكريم عندما ألقى محاضرة في إحدى الجامعات الألمانية حول التسامح في الأديان واقتبس طرفًا مما قاله أحد أباطرة الروم في القرن الثالث عشر في مناظرة مع أحد المفكرين الفرس ، حيث تساءل الإمبراطور ومعه البابا بالطبع عما أضافه الإسلام ورسوله إلى البشرية سوى العنف والإرهاب والتزمت ، وقد أثارت محاضرة البابا هذه المرة ردود فعل أوسع ضد الحبر الأعظم وهو نفسه أستاذ سابق للاهوت بنفس الجامعة ويعلم جيدًا معنى الاقتباس في محاضرة معدة سلفًا وفي ظروف يتعرض فيها الإسلام لحملة ضارية .

ولا يمكن الفصل بين المواقف الصحفية الأوروبية من الرسول الكريم وموقف البابا سوى في أن البابا هو رئيس الكنيسة الكاثوليكية الواسعة الانتشار كما أنه يعد رئيس دولة مدينة الفاتيكان ، ولذلك طالبت أوساط إسلامية بوقف الحوار مع الفاتيكان وسحب سفرائها لديه .

وعلى أية حال ، فإن ردود الأفعال الغاضبة في العالم الإسلامي لكل ما يسيء إلى الإسلام والرسول الكريم لن توقف الحملة الغربية وهذا هو موضوع الجزء الثالث من هذه الورقة .

ومن الواضح أن محاولات النيل من رسولنا الكريم قد اتخذت صورًا متعددة سواء صدرت في كتب ودراسات أو في روايات أدبية مثل رواية سلمان رشدي " آيات

شيطانية " عام ١٩٨٨ ، أو في رسوم كاريكاتورية أو مقالات كما حدث في الحملة الأخيرة ، أو في محاضرات علمية كما حدث مع البابا .

من الواضح أيضًا أن محاولات النيل من الرسول الكريم قد ركزت على وصمه بالإرهاب ، وذلك بعد أن وصم القرآن نفسه بالإرهاب ، ومادام القرآن والرسول الكريم هما عماد الشريعة ومصدراها الأساسيان ودليل حياة المسلمين وثقافتهم ، فإن الطعن فيهما ووصمهما بالإرهاب يهدف إلى ضياع الدليل والتشكيك في صلب العقيدة ، وهذا كله مرتبط بما تضمنته حملة مكافحة الإرهاب عقب أحداث ١١ سبتمبر التي استغلت أو صممت لمحاربة الإسلام والمسلمين ، وتميل معظم الدراسات الحديثة إلى التشكيك في صحة الأحداث وتتجه إلى اتهام أجهزة الأمن والموساد بتدبير هذه العمليات التي أفادت أمريكا وإسرائيل في الانقضاض على العالم الإسلامي وتسفيه حضارته وشريعته ورموزه المقدسة وقهر المسلمين على ما لا يتفق مع تقاليدهم ووطنهم .

فقد أشاع الغرب أن القرآن نفسه يحض أتباعه على الإرهاب في قوله تعالي " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم " ، ورغم أن الإرهاب للعدو المعتدي وأنه ردع له ، إلا أن الآية فسرت لديهم وفق غرضهم ، وقد يجدي بيان الحقيقة في الآية دون تقديم تفسيرات اعتذارية تخالف النص وتستجدي من في قلبه مرض .

من ناحية أخرى ، أظهر سلوك الجنود الأمريكيين في أفغانستان والعراق وجوانتانامو من الفضائح ما أدانه العالم كله وكان أحد أسباب هزيمة الحزب الجمهوري في انتخابات الكونجرس ، ولكن يهمنا تدنيس القرآن الكريم كأداة للانتقام من المعتقلين وإذلالهم وإلقاءه في المراحيض . فالتلازم بين استهداف القرآن والرسول الكريم واضح وهما ركنا الإسلام .

وهذا التلازم كان وسيظل مادام الإسلام باقيًا ، ومادام الغرب يدرك تمسك المسلمين بكتابهم وسنة نبيهم في نشر التسامح والإنسانية والأخوة والوئام في عالم ترتفع فيه موجات الفجور ومجافاة الطبيعة البشرية في الحياة والسلوك تحت ستار عولمة مشبوهة تهدف إلى اختراق عقيدة المسلمين وثوابتهم .

ثانيًا : أهداف الحملة ودوافعها :

لاشك أن استهداف القرآن والإسلام ورسوله هو جزء من الحرب الدينية التي تمثل امتدادًا للحروب الصليبية وهو في نفس الوقت حرب سياسية تتخذ الدين ذريعة وستارًا ، في إطارها العام هو مقاومة الإرهاب وتعتبر الرسول الكريم رمزًا ومرشدًا له وأنه في نظر الغرب والكنيسة هو الذي أتى بالقرآن الكريم فبث فيه كل معاني العنف والكراهية ولذلك وجدنا الحملة تشمل كل الأوساط الإعلامية والثقافية والسياسية والكنسية مما يضيق المقال عن تفصيله وإيراد أمثلته ولكن الكنيسة بشكل خاص ساهمت بجدية في هذه الحملة وكرست نفس الصورة القديمة التي يتدارسها اللاهوت في كنسهم عن الحروب الصليبية عندما كان الأوروبيون والمسلمون يصموا بعضهم بعضًا بالكفار وتشيع في الكتابات القانونية الغربية التي أسست لعلم القانون الدولي هذه المفاهيم ، حيث أجاز المسيحيون قتل المسلمين الكفار في مقابل تقسيم المسلمين للعالم إلى دار الإسلام ودار الكفر .

ولاشك أن الحملة ضد الرسول الكريم تدرك العلاقة بينه وبينه القرآن والكريم وهي علاقة عضوية بقطع النظر عن التصوير الغربي السابق لهذه العلاقة ولكن القرآن واضح في تحديد مكانة الرسول شخصيًا ومكانة سنته باعتباره مشرعًا مخولاً بذلك وهو ما يعرفه المستشرقون جيدًا . فالقرآن نزل على الرسول وحيًا ، وربط القرآن ربطًا مطلقًا بين القرآن ورسوله في قوله تعالى " ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " ، وقرن القرآن الكريم بين أوامر الله وأوامر النبي في مواضع متعددة تنتظمها صيغة متكررة " وأطيعوا الله والرسول .. " . كما كرم الله سبحانه نبيه الكريم واختصه دون غيره من الأنبياء والرسل بالذكر الحسن وامتدح خلقه العظيم .

والثابت أن دارسي العلاقة بين القرآن ورسوله في الغرب قد انتهوا إلى الحقيقة وهي أن رسول هو مبلغ الرسالة وأن القرآن هو معجزة الدعوة التي نزل بها الرسول الكريم وأن هذه الدعوة موجهة للناس كافة في الماضي والمستقبل ، وأن الرسول خاتم الأنبياء ورسل السماء إلى الأرض كما أكدوا أنه لا يمكن تصور القرآن الكريم بغير رسول الإسلام العظيم .

هذه العلاقة المركزية بين القرآن ورسوله واستقرارها في عقيدة المسلمين على أساس أن القرآن والسنة هما ركنا الشريعة الإسلامية هي التي استهوت أصحاب الحملة ، فلا غرابة أن نجد للحملة جناحين هما : استهداف القرآن فيما أشرنا من تدنيسه والتطاول عليه ، جنبًا إلى جنب مع استهداف رسولنا الكريم .

ويبدو لنا أن الحملة ضد الرسول تستغرق الحملة ضد القرآن لأن الهجوم على الرسول يعني تقويض الرسالة من أساسها ، وهي حملة سياسية في جوهرها تهدف إلى تحقيق عدد من الأهداف الظاهرة والباطنة والتي يمكن أن نوجزها في ثمانية أهداف رئيسية :

الهدف الأول : هو زعزعة أركان القوة عند المسلمين ، وقد بدا خلال السنوات القليلة السابقة أن الآخر يحسد المسلمين على وفائهم لقرآنهم ونبيهم خاصة عند استجواب بعض العناصر الإسلامية التي فضلت الموت على التفريط في دينها رغم كل ما نسب إلى هذه العناصر من أفعال إرهابية بالحق والباطل .

معنى ذلك أن الحملة قد استهدفت ركني الشريعة مستغلة عددًا من الاعتبارات أبرزها حالة الاستهداف العامة التي ركزت هذه المرة على تتويج الجهود السابقة في ربط الإسلام بالإرهاب .

والحق أن المسلمين قد وقفوا موقف المتفرج طوال ربع القرن الماضي إزاء الجهود الصهيونية التي جعلت علاقة الإسلام بالإرهاب جزءًا من المدرك الثقافي والإعلامي الغربي بحيث أصبح يكفي أن ينطق اسم أو رمز إسلامي حتى يوصم بالإرهاب إلى أن يثبت عكس ذلك .

الهدف الثاني : هو أنها في إجمالها تبدو وكأنها استئناف للحروب الصليبية . ولا يخفى عندنا أن الهجمة التي يواجهها الإسلام هذه المرة تشبه تمامًا تلك الهجمة الشرسة أو ما يسمي بالانقضاض الصليبي مقترنة بالاستعمار وتجسيد الهجمة بصورة عسكرية واستيلائية على مقدرات البلاد الإسلامية في نهاية القرن الخامس عشر وهي الفترة التي كانت قد شهدت ظهور الجناح الشرقي في تركيا العثمانية واقتحامها أوروبا من شمالها ووسطها ، فكانت الخريطة العامة في ذلك الوقت هي الصراع في ثوب جديد بين التوسع الإسلامي في أوروبا والتوسع الاستعماري في

العالم الإسلامي .وتعمد الحملة الجديدة إلى كل الوسائل الإعلامية والسياسية مستغلة كل شيء بما في ذلك ما ترسب خلال نصف القرن الماضي من صور سلبية للإسلام والمسلمين .

الهدف الثالث : هو استفزاز المسلمين وتشويه صورة الإسلام ورسوله في الغرب حتى تسوء العلاقة بين المسلمين والغرب وتنغلق سبل الحوار والتفاهم لصالح اليمين المتطرف المسيحي أو الصهيونية المسيحية .

الهدف الرابع : هو تجسيد الخوف من الإسلام وحملة كراهية الإسلام ، " الإسلاموفوبيا " التي تجمع في طياتها بين الخوف والتربص والكراهية ، وتحقيق ما أراده البعض وبشر به منذ منتصف ثمانينات القرن الماضي من أن الإسلام سيصبح هدفاً للغرب بعد انحصار الخطر الشيوعي ، وبدأ الغرب بالفعل يستعد لذلك مما نراه الآن من آليات وابتداعات لمقاومة الإسلام بعد ربطه هذه المرة بالإرهاب ، وليس دعاوى الديمقراطية لمقاومة الثقافة الإرهابية وتجديد الخطاب والفكر الديني وتطوير البرامج التعليمية إلا أداة للتدخل في المجتمعات الإسلامية وتبرير العبث بثقافة المسلمين ، كما أن المواجهة العسكرية التي تضمنتها نظرية الرئيس بوش للإرهاب وهي الجناح الثاني مع الديمقراطية لمقاومة الإرهاب إلا ذريعة أخرى لتحطيم العالم الإسلامي وليست الحرب الدولية لمكافحة الإرهاب إلا حملة أمريكية للقضاء على الإسلام وإذلال المسلمين .

ولاشك أن إشاعة الخوف من الإسلام وتكريس هذه الثقافة في المجتمعات الغربية عن طريق نشر الصور المتوحشة للمسلم وسلوكه يسمح للمنظمات المتطرفة اليمينية في الغرب من المطالبة بوقف هجرة المسلمين إلى أوروبا وطرد من بقي منهم خاصة بعد وقوع أحداث مدريد ولندن عام ٢٠٠٥ والتي كانت الشرارة التي استغلت لبدء الحملة الجديدة أو الموجة الجديدة من الحملة المستمرة ، وقد أدى ذلك بالفعل إلى تقلص المساندين للحقوق الإسلامية وأثر ذلك على قضايا العالم الإسلامي والعربي ، كما سمح للحكومات الأوروبية بأن تتغلب على المعارضة وتصدر تشريعات مكافحة الإرهاب التي وضعت الأقليات الإسلامية في دائرة الشك والاتهام .

والظاهر لكل مراقب أن الدوائر الصهيونية واليمينية التي تطالب بالتصدي للأقليات الإسلامية ضمن استهدافها وكراهيتها لكل الأجانب تستثني بشكل خاص الأقليات اليهودية ، كما أن هذا المناخ والإساءة إلى الرسول الكريم يسمح لها بأن تشيع بأن المسلمين لا يتمتعون بالتسامح إزاء نقد غيرهم لهم ، لذلك لا يمكن أن يكونوا جزءًا من نسيج المجتمعات الغربية ذات الحضارة المسيحية ، وقد آن الأوان لفرزهم باعتبارهم بثورًا ضارة على جسم المجتمع الأوروبي وتهديدًا مستمرًا لتطوره الاجتماعي . وفي هذا الإطار حاول البعض دون جدوى أن ينسب أعمال الشغب في باريس عام ٢٠٠٥ إلى عناصر إسلامية كما كان الحال دائمًا في اتهام المسلمين الجاهز بأي عمل تخريبي لولا أن المفكرين في فرنسا أدركوا خطورة تسييس القضية لصالح التيارات المتطرفة وبدأوا يعالجون الموضوع من زاوية إيجابية وبشكل أخص من زاوية علم الاجتماع .

الهدف الخامس للحملة هو الدعاية للمسيحية وبيان مدى تسامحها مقابل الإسلام المتصل بالإرهاب . ولا يخفى أن هذا الهدف ينطوي على الترويج للمسيحية رغم فصل الدين عن الدولة ، وذلك بعد أن انصرف الشباب عن دور العبادة مقابل إقبال الشباب المسلم على المساجد ، وتوحش التيارات الإلحادية المادية مع ارتفاع أسوار العولمة ، وكذلك تهدف الحملة في هذا المقام إلى مواجهة الأعداد المتزايدة للذين يعتنقون الإسلام لأن هذا الإقبال على الإسلام يدحض حجتهم بأن الإسلام قد انتشر بالسيف ، كما أن التصدي للمتحولين للإسلام يفضح ما يتقولون به من حرية شخصية في اختيار الإله والسلوك .

وربما هذا هو الذي يفسر انضمام البابا في هذه المرحلة إلى الحملة ضد الرسول والإسلام لأن تحول الشباب عن الكنيسة وظهور الفضائح والانقسامات الكنسية يضعف السلطة الدنيوية للبابا وهو بذلك يصل تقليدًا معروفًا منذ الحروب الصليبية وخطاب الكنيسة الذي يعتبر القرآن الكريم مصدرًا للإرهاب بآياته عن الجهاد والسيف بينما أحجم المسلمون عن المس بكتاب المسيحيين صدعًا بأوامر دينهم .

ويرى المعاصرين من آباء الكنيسة مثل الأب موريس يورمان أن السيف شعار المسلمين يدل على العنف وأن السلم لا مكان له في دنيا المسلمين كما كرست

الكنيسة مع غيرها تعميم الإرهاب على عموم المسلمين دون تمييز بين المعتدل والمتطرف ، كما أن الكنيسة هي التي رسخت مقولة أن الإسلام عقيدة ابتدعها محمد قوامها الكذب والتشويه المتعمد للحقائق والجبروت والانحلال الخلقي والانفلات مع الشهوات والقتل وهو ما يناقض في زعمهم ما تدعو إليه المسيحية .

وقد ساهمت المنظمات الصهيونية في هذه الحملة التي صورت الأقليات الإسلامية على أنها أفواج من الغزاة الجدد لأوروبا ، فإذا كان المسلمون قد غزو أوروبا حربًا في العصور الوسطى فإن الأقليات الإسلامية تغزو قلب المجتمعات الأوروبية سلمًا واستغلالاً لسماحة المسيحيين وديمقراطية الغرب .

وقد أجرت هذه المنظمات الصهيونية مقاربات متكررة بين الإسلام ومعاداة السامية مستدلة بذلك بما ورد في القرآن حول اليهود وغدرهم وقتلهم الأنبياء وزيف كتابهم في قوله تعالي " ويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم " .

الهدف السادس المتصل بهذه النقطة هو أن نشر الرسوم المستفزة للمسلمين والمسيئة لرسولهم الكريم يعد اختبارًا لولاء الأقليات الإسلامية في أوروبا وكان عليها أن تختار بين الانتماء الديني والانتماء الأوربي وأن الإسلام لا يمكن أن يكون جزءًا من ثقافة أوروبا . وهذه حقيقة يكشفها موقف الاتحاد الأوروبي من تركيا كما تكشفها تصريحات علنية للكثير من كبار القادة والزعماء في أوروبا الديمقراطية . ويتحصل هذا الهدف في أن الأقليات الإسلامية قد اختارت الولاء لدينها ونبيها ويستدلون على ذلك أيضًا بأمثلة عملية وهي انخراط عدد من الشباب الأوروبي في الحرب في العراق ضد جيوشهم الوطنية مما أحدث انقسامًا حادًا بين الولاء للأمة الإسلامية والولاء للأمم الأوروبية التي يعيش فيها المسلم .

والمعلوم أن الصهيونية قد ربطت منذ عدة قرون بين الهدف المسيحي والهدف اليهودي ضد المسلمين ، واعتبرت أن هذا الهدف مشترك بينهما ضد عدو واحد ، وكشف الصهاينة في كتاباتهم وخاصة المستشرقون منهم عن الحض على كراهية الإسلام ومحاربته والقول بأن عالمية الإسلام وخطاب القرآن هما نزعة استعمارية عالمية لا تميز بين المسيحيين واليهود وهو نفس المنطق الذي ساقه اليهود عام ١٩٦٤ ليحصلوا على وثيقة الفاتيكان لتبرئة اليهود من دم المسيح ، مثلما تمكن

اليهود منذ العصور الوسطى من الربط بين التوراة والإنجيل باعتبارهما كتابًا واحدًا أحدهما قديم والآخر جديد .

الهدف السابع : هو شق الصف الإسلامي وإيقاع الفتنة التي بدأت بالفعل بين المسلمين بمختلف طوائفهم وبين عموم المسلمين وبين الغرب وبين المسلمين المتدينين والعلمانيين بحيث أصبح العلمانيون في هذه المعركة يقفون في خندق أعداء العالم الإسلامي .ولا يجوز أن نغفل في هذا السياق عن ظهور عدد كبير من الدعاة الهواة في تفسير القرآن وعلومه وتقديم الفتاوى ونشرها في الفضائيات وزرع البلبلة حول أصول الدين وأحكامه الثابتة مما أحدث فوضى حقيقية واضطرابًا واضحًا في الشارع الإسلامي .

الهدف الثامن هو الرغبة في إظهار الفارق بين همجية الرد الإسلامي على الإساءة للرسول الكريم وبين حضارة أوروبا التي لا تحترم مقدسًا ولا تعبد إلا المادة ، وأن حرية التعبير أو بمعنى أدق حرية الإساءة للآخرين ما عدا اليهود هي أعز ما يحرصون عليه . ولا يخلو هذا الهدف من محاولة استفزاز الأقليات الإسلامية لتعزيز المقولات السابقة عنهم . كما لا يمكن أن نغفل في هذا السياق عن أن نشر الرسوم المسيئة للرسول الكريم تعطي المنظمات الإرهابية التي تتظاهر بالانتصار لرموز الإسلام ومقدساته الفرصة لكي تثبت أن نظرتها للغرب الصليبي وتحالفه مع الصهيونية هو التحليل الصائب .

وقد يحلو لرواد الحملة أن يروا هذا الاستقطاب الحاد بين خطاب التطرف الإسلامي وخطاب التطرف الصليبي ، فالأول يتزعمه بن لادن بمفرداته حول غزوتي نيويورك وواشنطن وانقسام العالم منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ إلى فسطاطين أي معسكرين أحدهما معسكر الإيمان والآخر معسكر الكفر تجديدًا لمقولة تقسيم العالم في العصور الوسطى عند المسلمين إلى دار السلام ودار الحرب ، مقابل خطاب بوش حول محور الشر ومحور الخير ، والتقابل بين خطاب الجهاد والقتال الدائم عند بن لادن في التفسير المتطرف لآيات الذكر الحكيم وبين خطاب بوش حول الحرب الاستباقية وأنه مبعوث العناية الإلهية لحماية العالم من الإرهاب الإسلامي ، وما بين الخطابين المتطرفين يشقى المسلمون .

وخلاصة القول في هذه النقطة هي أن الحملة متعمدة وموجهة وتتسم بالعداء المقصود وأن توقيتها وتكثيفها منذ صيف ٢٠٠٥ ربما يكون له علاقة مباشرة بتفجيرات مدريد ولندن التي اعتبر بوش أنها تؤكد صدق نظريته بأن الخطر الإسلامي لا يستهدف أمريكا وحدها وإنما يستهدف حضارة البشرية كلها مما يبرر له كافة الصلاحيات بمحاربة هذا الخطر على مستوى العالم ، كما لم يفت الرئيس بوش أن يبرهن للشعب البريطاني أن بريطانيا لا تساند الولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب على سبيل المجاملة ، وإنما لأن الإرهاب يستهدف الجميع وذلك ردًا على نقاد توني بلير .

ولم يفت الإعلام الصهيوني أن يلفت النظر إلى أن الأقليات اليهودية تختلف تمامًا عن الأقليات الإسلامية ، فالأولى تبني والثانية ترهب وتهدم بسبب إخلاصها لنبيها ودينها ، فأصبح الإخلاص للدين في هذا الخطاب الصهيوني قرينًا ورديفًا للتفاني في الإضرار بالمجتمع الغربي ، كذلك أشار الإعلام صراحة إلى أن الإرهاب الذي ضرب أوروبا جاء من أقلياتها الإسلامية التي لم تحترم أمن المجتمعات التي احتضنتها وتربت فيها بخلاف الإرهاب الذي هاجم الولايات المتحدة من الخارج.

ولاشك أن هذه المقاربة أحدثت أثرًا فادحًا في نفوس الأوروبيين وأدت إلى تفاقم فزعهم من الإسلام والأقليات الإسلامية وأضاعت الأصوات العاقلة الموضوعية التي تطالب بالتحليل الموضوعي لهذه الظاهرة .

كذلك تم استغلال هذه الحملة وردود الفعل عليها خاصة تلك الردود الغاضبة من الشباب المسلم وعجز الحكومات أو تراخي بعضها في ضبط ردود الفعل دفع الحكومات الأوربية إلى النزول إلى ساحة الدفاع عن التصرفات المسيئة للرسول بدعوى حرية التعبير رغم الحقيقة الواضحة وهي أن حرية التعبير لا تثار إذا تعلق الأمر باليهود عمومًا وإسرائيل ومقدساتهم . ولذلك رأى البعض أن هذه الحملة في توقيتها وكثافتها وتجهيزها صناعة صهيونية حتى تستدرك هذه الحملة إيقاع الضرر الذي فوتته الحملة الشرسة التي انطلقت من أحداث ١١ سبتمبر والذي خفت أوارها بسبب تكشف الكثير من حقائقها وإدراك العالم كله لدواعيها .

ثالثًا : سبل مواجهة الحملة

يتضح من التحليل السابق ارتباط الحملة الجديدة بوضع دولي خاص خلقته أحداث ١١ سبتمبر وارتبطت في نفس الوقت بالحملة الضخمة التي انطلقت من سبتمبر لتدمير الهوية الإسلامية وزعزعة العقيدة واستهداف أركانه الأساسية وهما القرآن والسنة وقد استغلت هذه الحملة الجديدة هجمات مدريد ولندن حتى تنقل الفزع إلى الديار الأوروبية وتخلق وحدة غربية ضد الإرهاب الإسلامي في الوقت الذي يبرأ الإسلام والمسلمون مما لحق بهم وبدينهم وبتلك اللعبة المكشوفة بين ما يسمي بالإرهاب الإسلامي والمصالح الغربية الكبرى ، فالحملة الجديدة إذن هي استكمال وتابع للحملة الأصلية التي انطلقت عام ٢٠٠١ كما أنها فصل جديد في مسلسل قديم ولكن الجديد فيها هذه المرة هو التركيز على علاقة الإسلام بالإرهاب الذي لحق بالقرآن الكريم وبرسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، ولذلك حرصت الرسوم الكاريكاتورية على أن تصور الرسول الكريم بزي عربي وفي عمامته قنبلة وهو ضرب لعصفورين بحجر واحد : العروبة والإسلام .

والغريب أن الفصل بين العروبة والإسلام هو صناعة علمانية ولا نزال نذكر الحروب الفكرية المصطنعة بين الإسلاميين والعروبيين وقد نسوا جميعًا الحقيقة المؤكدة وهي أن العروبة بغير إسلام بداوة وجهالة وأن الإسلام بغير عروبة علم يحتاج إلى يحتاج سارية فالعروبة هي الحاضنة للإسلام والإسلام هو روح العروبة، فقد أعز الله العرب بالإسلام بعد ذلهم ، كما أذلهم عندما فرطوا في الإسلام وهو لا يعد تفسيرًا دينيًا لظاهرة انحطاط العرب بقدر ما يعد قراءة تاريخية دقيقة لعلاقة العروبة والإسلام .

إذا كانت الحملة تستهدف كل ما اشرنا إليه وتنطلق من استغلال واضح لظروف معينة وأهمها اختطاف بعض المنظمات الإرهابية للإسلام واغتصاب الحديث باسمه وهم خطر على المسلمين قبل أن يشكلوا خطرًا على غيرهم ، كما أنهم أسهموا في رسم صورة الإسلام السلبية عند الآخرين .

لاشك أن غضبة المسلمين لقرآنهم ونبيهم لها ما يبررها ، ولكنهم يجب أن يدركوا أن الحملة سوف تتكرر وأن مجرد الغضب هو تنفيس عن حالة نفسية وأن الغضب المدمر هو بالضبط ما تهدف إليه الحملة .

ومن الصعب في هذه العجالة أن نقدم استراتيجية شاملة لمعالجة هذه القضية الخطيرة ، فسوف تظل حرية التعبير في أوروبا هي الحصانة التي يتستر بها كل من يسيء إلى الرسول الكريم ، ربما عن جهل بمكانته في بعض الأحيان وربما لفهم عميق لهذه المكان في أحيان أخرى ، وربما لأن أوروبا لا تقدس مسيحها ولا تعترف بإله وتدخل ذلك كله في إطار الحرية الشخصية .

فإن قلنا إن الإساءة للرسول ثقافة أوروبية لا يمكن للعالم الإسلامي أن يغيرها أدى ذلك إلى طريق مسدود ، وإن قلنا أن الحملة المسيئة للرسول الكريم تنطوي على استخفا للمسلمين والإسلام لأدى ذلك التحليل إلى الانتظار إلى اليوم الذي يصبح فيه المسلمون قوة يعتد بها ويخشى بأسها . وإن قلنا أن كف الحملات عن اليهود ومقدساتهم في أوروبا سببه حماية الولايات المتحدة لإسرائيل وكل ما يرتبط بها وهو أمر لا يقابله نفس الشيء في المعسكر الإسلامي لأصبنا كبد الحقيقة ، ولذلك فإنني أعتقد أن معركتنا الرئيسية لكف الحملات عن ديننا ورموزنا المقدسة ليس معركة دينية وإنما هي معركة شاملة يشارك فيها السياسيون والمثقفون والمشتغلون بأمور الدين والإعلام ، ولهذا السبب فإننا يجب أن نعد خطة شاملة تهدف إلى تنقية أفهام المسلمين وترقيتها بفهم أصول دينهم وتنقية المعالجات الإعلامية مما يسيء إلى الدين والتوجه إلى الآخر بأفضل ما في هذا الدين من قيم وأن نبذل جهدًا لكي تعتدل الكفة بين المسلمين والولايات المتحدة وأن نقيم جسورًا قوية من الوئام مع العقلاء في الغرب وأن ندين الإرهاب والتطرف كلما وقع بصرف النظر عن الديانة التي ينتمي إليها الإرهابيون وأن نهتم اهتمامًا بترجمة معاني القرآن الكريم وإعداد الدعاة المستنيرين .

وأظن أن ذلك كله يجب أن يتوازى في حملة شاملة طويلة الأجل فكما أن الإسلام قوي بذاته منتصر بطبيعته فيجب أن يكون المسلمون في مستوى اليقين بتصرفاتهم وسلوكهم ، وألا يعبأوا كثيرًا بما يفعل السفهاء في الغرب وألا يكونوا عرضة للاستفزاز الدائم وأن يركزوا على هذه الخطة لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .